(تجليات كاتب من عُمان)- ٢

# السودان الفن والشعر والهادي آدم

د. سعيد بن سليمان العيسائي
كاتب وأكاديمي

## بلد النيلين:

كما كان يحرص عمي أمدّ الله في عمره كعادته عندما يلتقي بأحد السودانيين فيصافحه بكل محبة وترحاب قائلًا «أهلًا بابن النيلين» – النيل الأبيض والنيل الأزرق – إشارة إلى تحية أخرى يخاطب بها الأخوة المصريين قائلًا عندما يقابل أحدهم «أهلًا بابن النيل».

أقلتني «النيل كروز Nile Cruise» برفقة عائلتي في رحلة نيلية استمرت أربعة أيام بلياليها مستحضرًا الرحلة السنوية للفراعنة عبر النيل وما فيها من طقوس واحتفاليات ومستذكرًا قول الشاعر أحمد شوقي:

همّت الفلك واحتواها الماء
وحدها بمن نقل الرجاء

مررنا بالعديد من القرى والمدن خلال تلك الرحلة التي كنا نتوقف فيها لزيارة مجموعة من الأماكن الأثرية والسياحية ضمن فريق (جروب) سياحي إلى أن وصلنا (أسوان) مدينة السد العالي فتذكرت النوبة وقصة أهلها الذين فضل بعضهم الاستقرار في السودان وفضل الآخرون البقاء في أسوان. وما بين السودانيين وأهل النوبة تشابه في السحنة والعادات والتقاليد والطقوس والأزياء التي رأينا بعضها عند مطعم (فضلوس) التي تعني (تفضل) بالعربية، أفضّل احتساء قهوته العربية المعدة على الجمر والاستمتاع بمشاهدة الرقصة النوبية أمام المقهى في طريقي إلى الغردقة أو مقهى النوبي الذي اتخذ من (الجونة) وهي مدينة سياحية تابعة للغردقة مقرًا له.

عندما وصلت إلى أسوان تبين لي أنني على الحدود مع السودان فهاج بي الشوق والحنين إلى ذلك البلد الذي أحببته وقرأت عنه الكثير ولكن لم تسعفني الظروف لزيارته فجعلت من النيل رسول محبة ومودة بيني وبينه أبثه شوقي وحنيني علّ بعض هذه التباريح تهدأ بالبوح.

ذكرتني تلك الرحلة النيلية (النايل كروز Nile Cruise) بالبرنامج التلفزيوني الذي كان يقدمه إعلامي بريطاني يتجول فيه بين بلدان العالم بعنوان «From Pole to Pole» من القطب إلى القطب وفيه بعض الحلقات عن جولاته في السودان. وكنت حريصًا على متابعة هذا البرنامج وبخاصة هذه الحلقات التي خصصها للحديث عن السودان.

وأستحضر السودان عندما أزور رأس البر أثناء إقامتي في القاهرة وأشاهد اللسان الذي يلتقي فيه البحران العذب والمالح حيث تلتقي فيه آخر نقطة في النيل لتصب في البحر الأبيض المتوسط مصداقًا للآية الكريمة «مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان» فأتصور هذا النهر العظيم الخالد الذي ينبع من أثيوبيا «الحبشة» مرورًا بعدد من الدول الأفريقية ثم بالسودان وانتهاء بمصر.

تحول هذا الولع والاهتمام بالسودان إلى درجة الحرص على متابعة بعض برامج التلفزيون السوداني وبخاصة الأغاني والفولكلور السوداني المتمثل في قصص الشيخ فرح ود تكتوت وقصائد العباسي والمحجوب والفيتوري وإدريس جماع ومحمد محمد علي والهادي آدم وأغاني عائشة الفلانية وسيد خليفة ومحمد الأمين وصلاح ابن البادية ووردي، وعبدالكريم الكابلي ومتابعة البرنامج الشهير الذي يعده الإعلامي السوداني القدير عمر الجزولي (ناس من حياتنا) الذي استضاف فيه على مدى أكثر من ١٥ عامًا العديد من رموز السياسة والاقتصاد والثقافة والفن.

تلقيت دعوة كريمة منذ سنوات من الأستاذ الشاعر عبد العزيز سعود البابطين رئيس مجلس إدارة مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري للمشاركة في مؤتمر الشاعر ابن المقرب العيوني الذي عقد في البحرين.

وكان من حسن حظي أن التقيت بالأستاذ والروائي السوداني الكبير الطيب صالح رحمة الله عليه، وكنت أغتنم الأوقات المخصصة لحفلات الغداء والعشاء للجلوس على مائدته والاستفادة منه والتحاور معه حول العديد من قضايا الفكر والثقافة وبخاصة ما قرأته في فترة مبكرة من حياتي لروايتيه «موسم الهجرة إلى الشمال» و«عرس الزين» وعن علاقته بالسلطة في السودان وبخاصة إبان حكم الرئيس محمد جعفر النميري، وعن توتر العلاقة بينهما في فترة من الفترات، كما ذكرلي أنه كان مرشحًا لإحدى الحقائب الوزارية. وأذكر أنّه أعطاني عنوانه في لندن وألحّ عليّ بزيارته، وكنت أفكر في زيارته –لولا مشاغل الدنيا – التي أسدل ستار الأمل عليها بعد انتقاله للرفيق الأعلى.

علم زملائي السودانيون من أعضاء المناهج بوزارة التربية والتعليم بمتابعتي ورغبتي في الاستماع للأغاني والفولكلور السودانيين منذ مرحلة من حياتي فأهدوني مجموعة من الأغاني السودانية لكبار الفنانين السودانيين. ولم يتسن لهم الحصول على أغاني الفنان الكبير «محمد الأمين» وبخاصة أغنيته الشهيرة التي يقول في بعض كلماتها:

جنا(قلنا) ما ممكن تسافر
إحنا حالفين بالمشاعر
السفر ملحوق لكن إنت تجبر بالخواطر
إحنا ما صدقنا إنك بجلالك جيتنا زاير





**عندما وصلت إلى أسوان تبين لي أنني على الحدود مع السودان فهاج بي الشوق والحنين إلى ذلك البلد**

يقول بعض من جلست معهم من السودانيين أن لهذه الأغنية قصتين الأولى عندما زار الملك فيصل رحمه الله السودان، وعند سفره تمنى الفنان محمد الأمين لو طالت مدة زيارته وعزّ عليه سفر جلالة الملك ففنى هذه الأغنية.

أما القصة الثانية أو السبب الثاني فهو أن الفنان محمد الأمين قرر السفر إلى لندن لعلاج عينيه فنظّم أحد الشعراء هذه القصيدة وغناها هذا الفنان القدير نزولًا عند رغبة الشاعر.

وعندما سافرت إلى (ملبورن) لدراسة اللغة الإنجليزية التقيت بأستاذ سوداني يعمل موظفًا بالقنصلية العمانية في ملبورن وطلبت منه الحصول على بعض أغاني الفنان محمد الأمين التي كنت أبحث عنها لسنوات فتكرّم الرجل وأرسل لي بعد عودتي إلى عمان بريدًا مسجلًا فيه عدد من السيديهات والتسجيلات لأغاني محمد الأمين وبخاصة أغنيته التي أشرنا إليها.

وجّه المنتدى الأدبي بسلطنة عمان الدعوة قبل أكثر من عشرين عامًا للبروفيسور السوداني عبد الله الطيب صاحب كتاب «المرشد إلى فهم أشعار العرب» ورئيس جامعة الخرطوم الأسبق لإلقاء محاضرة عن الأدب العربي فكان مما لاحظته الحضور اللافت للجالية السودانية الذين وقفوا يستمعون للمحاضرة من خارج أسوار المنتدى بسبب أن حديقة المنتدى الكبيرة بولاية السيب غصت عن بكرة أبيها.

قدر لي أن أقرأ كتابه الشهير هذا الذي هو عبارة عن مجموعة من المجلدات التي خصص معظمها لدراسة الشعر الجاهلي، فكان يعقد المقارنات بين العديد من قصائد الشعر الجاهلي ومثيلاتها من القصائد لمشاهير الشعراء الإنجليز والأوروبيين في دلالة على تمكنه من اللغة الإنجليزية واطلاعه الواسع على الآداب الأوروبية.

الهادي آدم

ويحضرني هنا الأستاذ الدكتور محيي الدين صابر وزير التربية والتعليم في السودان من عام (١٩٦٩ – ١٩٧٢م) الذي أصبح بعد ذلك الأمين العام للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة. قرأتُ العديد من كتب ومؤلفات هذا التربوي البارع وبخاصة تلك المتصلة بمحو الأمية وتعليم الكبار التي طبعها المركز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار بسرس الليان بجمهورية مصر العربية، واستعنت بها في عدد من بحوثي ودراساتي المتصلة بالأمية في الوطن العربي، وطبعت بعد ذلك في كتاب عام ١٩٩٨م بعنوان «قراءة في مسارات الفكر العربي. دراسات الأدب والتربية». أشرت فيه إلى أن الفساد المالي والإداري وإساءة استغلال السلطة هي أحد أهم مؤشرات وأسباب الأمية الحضارية. والطريف في الأمر أن رئيس هذا المركز اتصل بي مرارًا وأرسل لي عددًا من الأساتذة العاملين معه يدعوني لزيارته في المركز الذي قرأت عنه وكتبت عنه أثناء عملي في وزارة التربية والتعليم لأكثر من ست عشرة سنة وتمنيت أن أزوره ولكن ظروف عملي والأوضاع التي كانت تمر بها مصر خلال السنوات التي قضيتها فيها حالت دون تحقيق ذلك.

## ثانوية «حنتوب»:

هذه المدرسة الثانوية التي أنشأها الإنجليز إلى جانب مؤسسات تعليمية أخرى كمعهد «بخت الرضا» وثانوية «غوردن» تربعت على عرش التعليم في السودان لردح من الزمن، وكتب عنها بعض الكتاب السودانيين مقالات حملت عنوان «حنتوب مدرسة حكمت السودان وكتبت تاريخه»؛ لأنها خرّجت عددًا من القادة والزعماء على امتداد تاريخها الناصع فقد تخرج منها الزعيم إسماعيل الأزهري أول رئيس حكومة وطنية بعد الاستقلال (١٩٥٤–١٩٥٦م) ورئيس مجلس السيادة (١٩٦٥ – ١٩٦٩) الذي كان يعمل معلمًا فأراد الإنجليز إبعاده عن دائرة الضوء فنقلوه ليعمل معلمًا في مدرسة (حنتوب) الثانوية فقال قولته المشهورة: «في حنتوب مشي حنتوب أي لن نتوقف عن ممارسة العمل السياسي والوطني. كما تخرج من هذه المدرسة الوزير العمالي البريطاني جورج براون والرئيس السوداني الأسبق (محمد جعفر النميري) وعدد من الوزراء السودانيين السابقين والزعيم اليمني قحطان الشعبي وحسن الترابي.

وعمل بالتدريس فيها شاعرنا الكبير الهادي آدم الذي نظم فيها قصيدة يستعرض فيها ذكرياته ألقاها في اليوم المدرسي ١٩٦٠م

(يوم الإباء) يقول في مطلعها:
إيه «حنتوب» حدثي أو كفكفي
إن في صمتك البيان الرصينا

**بخت الرضا:**

يكاد يكون معهد التربية «بخت الرضا» من أقدم وأشهر المعاهد التربوية التي أنشأها الإنجليز في السودان إن لم يكن أشهرها حيث استمر عطاؤه من عام (١٩٣٤ إلى عام ١٩٩٧م) زهاء السبعين عامًا إلى أن تحول إلى جامعة في العام ١٩٩٧م.

وأثار هذا المعهد الكثير من الجدل ما بين مؤيد ومعارض حيث يعده البعض ثورة على التقاليد التعليمية المعروفة آنذاك وامتدادًا لسياسة الإنجليز الرامية إلى التطوير والتجديد في مناهج وأساليب التعليم.

ومن الذين درسوا ودرّسوا في هذا المعهد الشاعر السوداني الكبير إدريس محمد جماع الذي أكمل دراسته في دار العلوم عام ١٩٥٢م، ونظم قصيدة في حب مصر والنيل يقول فيها:

النيل من نشوة الصهباء سلسله
وساكنو النيل سمار وندمان

التي تذكرنا بقصيدة أحمد شوقي التي يتحدث فيها عن دمشق ونهر بردى يقول فيها:

جرى وصفق يلقانا بها بردى
كما نلقاك عند الخلد رضوان

ونظم فيه صديق عمره الشاعر الهادي آدم قصيدة عندما مرّ بأزمة نفسية سماها «إلى أخي جماع وهو يعيش دوامة ذهوله وأزمته النفسية».

وجيه الأزهري اللاذقاني العاشق لمصر والسودان وعمان:

من مكتبته الصغيرة التي أطلق عليها «الطائر الأزرق **Blue bird**» قرب جامع أنس بن مالك بالمهندسين في القاهرة، يقف وجيه الأزهري موزعًا ابتساماته وخدماته على زبائنه الذين يكون معظمهم في العادة من طلاب المدارس والجامعات وأولياء أمورهم فيعطي هذا حاجته، ويسأل هذا عن بلده من باب الفضول وحب المعرفة وبخاصة زبائنه الذين يتأكد أنهم من غير المصريين الذين يسكن معظمهم في المهندسين.

عشق الرجل بعد بلده الأم سوريا التي ولد فيها وترعرع ثلاث دول هي مصر والسودان وعمان.

ولكل عشق قصته التي يحرص على روايتها كلما سنحت لذلك فرصة أو أحس أن

محمد الأمين

الطيب صالح

الحاضرين لم يسمعوا قصته من قبل.

قصته الأولى مع مصر التي جاءها ليدرس فيها بكلية الزراعة في جامعة الإسكندرية في الستينيات من القرن الماضي، ويذكر أنه كان يفكر في العودة بعد التخرج فتعطلت سيارته القديمة في أحد شوارع القاهرة، وكان الوقت حارًا والزحام على أوجه فمرّت به فتاتان وأمامهما رجل رث الثياب قد عضه الدهر بنابه فقالت الأولى ليس معنا إلا أجرة الباص (الحافلة) ولا يمكن التفريط فيها فردت عليها زميلتها يا أخت سوف أعطي ما لديَّ لهذا البائس الفقير وأسير في الحر ابتغاء مرضاة الله لعل الله يرفع عني حر نار جهنم، فهاله ما يسمع وقال في نفسه إن بلدًا فيها مثل هذه الفتاة حري بالبقاء فيها وكأني أشعر في قرارة نفسي أن فيها الخير الكثير، فقرر البقاء في مصر.

أما قصة عشقه للسودان ففحواها أنه عندما أكمل الثانوية العامة بمدينة اللاذقية حدثته نفسه الوثّابة إلى إكمال دراسته الجامعية في الزراعة بمصر وكان يحتفظ بشجرة النسب التي يعتقد أنها تربطه نسبًا ولو بأحد أجدادها بالزعيم السوداني إسماعيل الأزهري فحمل حقائبه بالرغم من إصرار والديه على إثنائه عن رغبته لكنه أصر وصمم على الرحيل إلى مصر ومنها إلى السودان التي استطاع فيها مقابلة الزعيم الأزهري الذي منحه توصية لدراسة الزراعة في مصر.

تذكرنا هذه الحادثة بقصة الأستاذ الدكتور/ جابر عصفور الذي أرسل خطابًا للرئيس جمال عبد الناصر طالبًا دراسة تظلمه وتعيينه معيدًا بقسم اللغة العربية بجامعة القاهرة (نشرت هذه المقالة بمجلة العربي عدد أكتوبر ٢٠١٥م).

ويختم قصص عشقه بعمان التي عشقها دون أن يراها قائلًا:

كنت في رحلة سياحية أنا وشقيقي إلى جزيرة «كريت» وعلى البحر التقينا بطيار سويسري فبادرته بالسؤال عن أجمل بلد رآه خلال رحلات طيرانه حول العالم التي امتدت لسنوات طويلة فرد قائلًا: عمان قلت له لعلك تقصد عمّان بتشديد الميم باعتبار أنها قريبة من بلدي سوريا فقال لا: بل أقصد بلد السلطان قابوس فقد أعجبني فيها النظام والنظافة.

وبسبب هذه الحادثة تولد لديه عشق لعمان التي لم يرها، وكان يقدم للطلبة والطالبات العمانيين كل ما يستطيع من خدمة ومساعدة. كما لا تفوته فعالية أو مناسبة تقيمها الملحقية داخل القاهرة وخارجها على الرغم من كبر سنه وظروفه الصحية والأوضاع الأمنية التي كانت تمر بها مصر. تأتيه تحيات وسلامات أسرة الزعيم الأزهري بين الفترة والأخرى لأنه لم يقطع صلته مع الزعيم الأزهري وأسرته رغم مرور عشرات السنين وفاءً منه للصنيع الذي قدمه له الزعيم الأزهري.

يخدم الجالية السورية ويسعى لتسهيل أمورها في مصر بحكم إقامته الطويلة التي امتدت لأكثر من خمسين عامًا مكنته من أن يصبح رئيسًا للجالية السورية في مصر في فترة من الفترات وكوّن فيها علاقات طيبة واكتسب خلالها محبة الكثيرين من المصريين وغيرهم.

يجلس أمام مكتبته مع بعض ألوية الطيران المصري المتقاعدين من دفعة الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك المجاورين لمكتبه يتذكرون أيام الوحدة مع سوريا ورحلاتهم بطياراتهم إلى سوريا للمشاركة في تدريب أو مناورة أو تعاون عسكري.

ذلك هو وجيه الأزهري اللاذقاني السوري المصري السوداني العماني العربي المسلم.





# نهاية مفتوحة لمصير
# «رئيس التحرير»

صدرت أخيرا في عمّان الرواية الأولى للشاعر المصري أحمد فضل شبلول «رئيس التحرير.. أهواء السيرة الذاتية» عن دار الآن ناشرون وموزعون.

تكشف فصول الرواية الكثير مما يدور في كواليس الصحافة المصرية والعربية، وكيفية إدارة المجلات والجرائد، وعن تشابك المصالح بين إدارة التحرير والكتّاب وبقية العاملين بالمطبوعة، وكيفية تربُّح بعض الأفراد من وراء عملهم بالصحافة.

كما تكشف عن الصراع الخفي في إحدى المجلات الثقافية الخليجية، بين رئيس التحرير وإحدى المحررات التي كانت وراء تعيينه رئيسا للتحرير.

كما تغوص الرواية في العالم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي بالمنطقة العربية، بدءا من انتفاضة ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ في مصر وصولا إلى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١.

ولا تخلو الرواية من الجانب العاطفي حيث علاقة السارد بزميلته الكاتبة والفنانة المصرية منى فارس، والكاتبة الخليجية الجوهرة إبراهيم، وكأن المرأتين شخصيتان لروح واحدة فضلا عن بروز شخصيات أخرى عربية وهندية بالرواية تكشف عن الواقع الخليجي اليومي الذي يتعامل من خلاله السارد خلال السنوات التي قضاها بالخليج.

تبدأ أحداث الرواية بلحظات الاسترجاع بعد أن تلقى السارد خبر الاستعداد للعمل لدى المجلة الخليجية، فيتذكر علاقته بأصدقائه القاهريّين، الذين كانوا يقفون ضد من ينال فرصة عمل أو فرصة سفر للمشاركة في فعاليات ثقافية أو شعرية خارج مصر، وجاء ذلك تحت عنوان «ألاعيب ثقافية»، ويتدرج الاسترجاع إلى سنوات دراسته في كلية التجارة عندما رأس تحرير مجلة حائطية، ثم مجلة «استنسل» صدر منها عدد واحد عن اللجنة الثقافية بكليته، ثم مجلة تصدرها إحدى الجماعات الثقافية والفنية بالإسكندرية، ثم علاقته ببعض المجلات العربية في ذلك

الوقت، ومنها مجلة «الثقافة العربية» التي كانت تصدر في ليبيا، ثم المشاركة في أحداث انتفاضة ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ عندما ارتفعت أسعار بعض السلع الغذائية في مصر.

ومن لحظات الاسترجاع التي شغلت حيزًا في الرواية، إلى السفر إلى الخليج للعمل، فأحس منذ الوهلة الأولى بأنه غريب على الخليج، خاصة أنه لم يجد أحدًا في استقباله.

الرواية التي جاءت في ٢٧ فصلا، ووقعت في ١٧٨ صفحة، تدور في عدة مدن عربية منها: الإسكندرية والقاهرة وأبوظبي وعمَّان وبغداد وغيرها من المدن. واعتمدت في جانب منها على السيرة الذاتية للسارد، وعلى المتخيل الروائي للشخصيات والأحداث في جانب آخر منها.

وتنتهي الرواية باندلاع أحداث ثورة ٢٥ يناير، ووقوع التصادم بين رئيس تحرير المجلة الخليجية والسارد، لعدم موافقته على نشر ما يكتبه السارد عن أحداث الثورة في إحدى الجرائد الخليجية، فيحصل السارد على إجازة لتهدئة الموقف المشتعل بينهما، وبهذه النهاية المفتوحة يترك الكاتب الكثير من الدلالات وعلامات الاستفهام بما سوف يؤول إليه مصير المنطقة.

إنها وثيقة أدبية فنية سياسية ورمزية للكثير من الأحداث التي مرت على المنطقة من خلال استخدام تقنيات الصحافة والإعلام داخل فصولها، حيث نجد التقرير والمقال والحوار الصحفي والاستطلاع والتحقيق وغير ذلك من أشكال الصحافة، إلى جانب التقنيات الروائية من سرد ووصف وحوار ومونولوج داخلي وعودة إلى الوراء (فلاش باك)، بالإضافة إلى وجود قصائد شعرية، فلم ينس السارد أنه شاعر في المقام الأول دخل عالم الصحافة من أوسع أبوابه.

يذكر أن أحمد فضل شبلول عمل في مواقع إعلامية عدة في مصر والخليج، وهو من مواليد الإسكندرية. حصل على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب عام ٢٠٠٧. تخرج في كلية التجارة ـ جامعة الإسكندرية. له اثنا عشر ديوانا شعريا مطبوعا، آخرها: «زوايا من بقايا شمعتك» – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢.

يكتب للأطفال، وأصدر سبعة كتب في هذا المجال، كان آخرها ديوان «دوائر الحياة» الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١١، وهو يكتب الدراسات الأدبية والنقدية، وله(١٨) كتابا مطبوعا في هذا المجال، آخرها: «في صحبة فاروق شوشة»، ٢٠١٧. وحصل على جائزة المجلس الأعلى للثقافة– شعبة الدراسات الأدبية والنقدية سنة ١٩٩٩، عن بحثه «تكنولوجيا أدب الأطفال».

أصدر بعض المعاجم العربية منها: معجم الدهر، ومعجم أوائل الأشياء المبسط، ومعجم شعراء الطفولة في الوطن العربي خلال القرن العشرين.

وشغل عضوية مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر(٢٠٠١–٢٠١٠)، ومنصب نائب رئيس اتحاد كتاب الإنترنت العرب(٢٠٠٥–٢٠٠٩). وقد كُرِّم من مؤتمر أدباء مصر ٢٠٠٩، والاتحاد العربي للإعلام الإلكتروني ٢٠١٠، وملتقى الشارقة للشعر العربي الثامن ٢٠١٠، ومجلة دبي الثقافية ٢٠١٠، وهيئة قصور الثقافة ٢٠١٦، وترجمت بعض أعماله الشعرية ومقالاته للعديد من اللغات الأجنبية.